جان جاك روسو وأصل الاختلاف
مع فلاسفة العقد الاجتماعي

أ.م. د. خاليد الخطا(*)

الكلمـــات المفتاحيـــة: الحداثة السياسـية، التأصيل، حالـة الطبيعة، التعاقـد الاجتماعي، المجتمع.

الملخص

اِعْتَبَرَتِ الفلسـفة السياسـية الحديثة معرفة حالـة الطبيعـة شـرطا لتأصيل نشـأة المجتمع والدولـة، ومنطلقـا لتحديـد مقومـات السـلطة السياسـية. إن الإجماع الحاصل على هذا الأمر بيـن منظري العقد الاجتماعـي، لم يترتب عنه الاتفاق بخصوص أسـس قيـام المجتمع المدني وطبيعـة العقد وغاياته، وهـو ما ينم عن وجود اختلافـات جوهريـة تخـص مضمـون مبـدأ التأصيل ذاته وسيرورة البناء الفلسفي..

تسـعى هذه الورقة إلى إبراز معالم التحول والجدة التي قادت جان جاك روسـو إلى بلورة موقف فلسـفي متفرد في نشأة المجتمع، انطلاقا من اسـتعادة سـؤال الأصل الذي شـكل مدخلا لتحليلـه لموقفـي كل من تومـاس هوبز وجون لوك بخصوص حالة الطبيعة وسماتها، وتمايز خصائص الإنسان الطبيعي فيها عن خصائصه في الحالة المدنية..

توطئة

ما كان للفلسـفة السياسية في الفترة الحديثة أن تكـون حديثـة بإبقائها على نفـس منطلقات التفكير الفلسـفي ومبادئه التي أطرت النظريات السياسـية السـابقة عليها. ويبقى تبلـور مفهوم الفـرد خلال العصر الحديـث حجر الزاوية في التحـولات التي طالت الفكر السياسـي الحديث الـذي اتخـذ من نتائـج الثـورة الكوبرنيكية في الفلك، وإنجازات الجاليلية في الفيزياء وفلسـفة الذات الديكارتية خلفيـات نظرية أعادت تنظيم علاقة الذات بالآخـر والمجتمع وباقي مكونات الوجود الأخرى. وأحدثت انقلابا في طوبولوجيا المفاهيم السياسـية، وأسـهمت فـي انبثاق نظم فكريـة جديدة بمسـوغات تجلت بـكل وضوح في النظرية السياسـية الحديثة مع فلاسفة العقد الاجتماعي.

(*) جامعـة مـولاي إسـماعيل-كلية الآداب والعلـوم الإنسانية – مكناس-المغرب

يَعْتَبِـرُ جان جاك روسـو أن معرفة أسـس المجتمـع مشـروطة بإزاحـة ما انضـاف إلى الطبيعـة الإنسـانية بموجـب المدنية، فـإذا ما «نظرنا إلـى المجتمع الإنسـاني نظـرة هادئة ومنزهـة عن المنفعة، فلا يبدو لنا منه إلا عنف البشـر الأقويـاء واضطهاد ضعفائهـم، فيتمرد الروح على قسـوة أولئـك، أو يحمل على رثاء حالة الضلالة التـي عليها هؤلاء. وإذ لبس بين البشـر من شيء أقل استقرار من هذه العلاقات البرانية التي غالبا ما تصنعها المصادفات أكثر ممـا تصنعها الحكمـة. وهي تلك التي نسـميها ضعفـا أو قـدرة، غنـى أو فقـراً، بـدت جميع المؤسسـات البشرية لأول وهلة وكأنها مؤسسة على أكوام من الرمال المتحركة.»[1].

إن تَبَيُّـنَ القاعـدة التي قام عليهـا المجتمع، لا تتأتـى معرفتهـا إلا بجعل الإنسـان الطبيعي موضـوع فحـص لاسـتبعاد كل مـا انضـاف إليـه بموجـب الوضـع المدني. فـإذا لم ندرس الإنسـان في حالة الطبيعة لمعرفة حدود ملكاته والتطـورات التـي تعاقبـت علـى تغييـر نمط وجـوده، فإننـا "«لن نسـتكمل أبـدا إقامة هذه التمييـزات ولا الفصل بين مـا صنعته الإرادة الإلهيـة وبيـن ما يزعـم الفن البشـري أنه من صنعه »[2].

الواضح إذاً، أن الانطلاق من حالة الطبيعة بمـا هي أخلـص تعبير عن الإنسـان الطبيعي، بعيـدا عـن كل مضافـات الحالـة المدنية، أمر تطلبه ضرورة التأصيل لوضع اليد على أسـس تشكل المجتمع بناء على التطورات التي طالت حالـة الطبيعة وجعلت الاجتمـاع ممكنا، بعدما كان منافيا لطبيعة الإنسان الطبيعي..

لا يخرج روسو عن الإطار العام لنظريات العقد الاجتماعي بتأكيده على ضرورة الارتداد إلـى حالـة الطبيعة للبحث في أسـس المجتمع، لكنـه في الآن نفسـه يؤسـس لنقد مـا توصلت إليـه المحاولات السـابقة عليه. إنـه يؤكد على ضـرورة التمييـز والفصـل بين ما جُبِـلَ عليه الإنسـان وما اكتسبه كسبا بفعل الاجتماع. يقول روسـو مؤكدا هذا الأمر: «الذيـن تولوا البحث في أسس المجتمع استشعروا ضرورة الارتداد إلـى حالة الطبيعـة، ولكن لا أحـد منهم وصل إلى هنـاك. فبعضهم لم يتردد فـي افتراض أن الإنسـان لديه، وهو في تلك الحالة، معنى العدل والجور، من دون أن يقيموا الدليل على أنه كان كاسبا لهذا المعنى وجوبا، أو أن هذا المعنى كان نافعا له»[3]. إن تَبَيُّنَ أصل اختلاف روسـو مع باقي فلاسـفة العقد الاجتماعي، يستلزم الوقوف على حالة الطبيعة كما سـوغ لضرورتها وحدد طبيعتهـا ومقوماتهـا فـي مؤلفـه «خطاب في أصل التفاوت وأسسـه بين البشـر» الذي يعتبر المصـدر الأسـاس فـي توصيفهـا، وعـرض فصـول التحـولات والتطورات التي وسـمتها وأهم المسـوغات التي عضَّدَ بها روسـو موقفه النقدي.

١. الضـرورة المنطقيـة لاسـتدعاء حالـة الطبيعة بما هي افتراض استدلالي :

تعتبر الفلسـفة السياسـية الحديثـة بمختلف تلويناتها واتجاهاتها أن نشـوء المجتمع والدولة لم يكن أمرا طبيعيا. إنهما من نتاج تأليف بشري خالص قائم علـى الاتفاق. وهي بذلك تنفي عن الإنسـان صفة الكائـن السياسـي والاجتماعي بالطبع. وبالنتيجة، فـإن كل المجتمعات المدنية لابد لها أن تنشأ من حالات الطبيعة السابقة على ظهور القوانين والدولة. فلابد أن تتم اسـتعادتها للعثور على الإنسـان وما يكون بالطبيعة. فلكي ندرك طبيعة السـلطة السياسية إدراكا صحيحا ونسـتنبطها من مصدرها الأصلـي، ينبغي أن نفحص الوضع الطبيعي الذي نجد البشـر عليه

ونكشف عن مقوماته التي تَتَحَدَّدُ بِها هذه السلطةُ نفسُـها[٤]. إن هذا المطلب شـرط مسـبق يمكِّن من معرفة الإنسان الطبيعي كما كونته الطبيعة. هذا مـا يجعل حالة الطبيعة والبحث عنها وفيها مفتاحـا لفهـم حالة الاجتمـاع المدنـي ومبادئه السياسية، وشرطا لقيام الدولة وفهم أصولها.

إن حالـة الطبيعـة تتمتـع بأسـبقية منطقية في مسار اشـتغال الفكر السياسي الحديث. هذا الوضع يسـمح بإثارة سـؤال جوهري يتمحور حـول إذا ما كانت حالـة الطبيعة أمرا واقعيا لا يتطلب من الفيلسوف سوى إجراء تنقيب تاريخي عليها، أم هي مجرد افتراض اسـتدلالي يستلزم تسـويغه تقديـم المبـررات المنطقيـة والبحثية المنهجيـة التـي جعلت منه ضـرورة لتوضيح طبيعة الأمور بغية تقييم وضع المجتمع كواقعة تقويما صحيحا.

يجمع فلاسـفة العقـد الاجتماعـي على أن حالة الطبيعة ليسـت هـي الحالـة البدائية التي وجد عليها البشر أول أمرهم. إنها مجرد تسويغ فلسـفي يحتاجه الفيلسـوف لفهم حالـة المجتمع القائمـة التـي يتـم تناولهـا كحالـة اصطناعية حاصلـة معها يصعب اسـتنباط منطق تشـكلها واسـتحالة معرفتها على نحـو محق. مطلب لا يتأتى بشـكل سـهل. فـ"ليس بالعمـل الهين أن نفرز بين مـا هو أصلي وما هو اصطناعي في طبيعة الإنسـان الحالية، ولا بالسهل أن نعرف حـق المعرفة حالة لم تعد توجد، وربما لم توجد قـط، ومـن المحتمـل ألا توجد أبـدا: ومع ذلك ضـروري أن تحصل لنا عنهـا أفكار صحيحة حتى نحسن الحكم في حالتنا الحاضرة "[٥]».

٢. حالـة الطبيعـة مـن منظـور توماس هـــوبز :

يؤكد هوبـز في الفصل الثالث عشـر» في حالـة الجنـس البشـري الطبيعية» مـن مؤلفه الليفيتـان علـى أنه ينبغي التنويـه قبل البدء في وصـف حالة الطبيعة هـذه، على أن هذه الحالة ليسـت واقعة تاريخيـة مرت بها البشـرية قبل أن تصـل إلـى حالـة التمدن أو مرحلـة تكوين المجتمـع، بـل هي حالـة افتراضيـة أو فرض منطقـي، أي حالـة سـابقة منطقيا علـى إقامة المجتمـع المدني. رغم أنهـا تنطبق على بعض المجتمعات والقبائل الهمجية القديمة»[٦].

انسـجاما مع رغبتـه في اسـتنباط المبادئ الناظمـة لنشـوء المجتمـع المدني والسياسـي من الطبيعة الإنسـانية. فإن الطرح الأرسـطي القاضي بأن الإنسـان بطبعه حيوان سياسـي لا تجـد مكانا لها فـي منظور هوبز. فهـي بمثابة مسـوغ قبلي يجعل من المجتمع معطى طبيعي لا يحتاج لأي تفسير. وإذا لم يكن المجتمع كذلك مع هوبـز، فإنه من الأمـور الاصطناعية التي ينبغي البحث لها على منطلق النشأة والتشكل.

يقر هوبز أن الطبيعة جعلت البشر متساوين فـي ملكة الجسـد والفكـر. ومن هذه المسـاواة في القدرة تنشـأ المسـاواة في تحقيق الرغبات. وتطابـق الغايات يكون بمثابة سـبب العداء بين أفـراد الجنـس البشـري. ولمـا كان غاية حفظ الـذات ملازمة لكل فرد، تحققـت أولى إمكانية تطابـق الرغبـات مـع امتلاك الجميـع قدرات متسـاوية في الدفاع عن النفس والحفاظ عليها. ولأن الخـوف مـن الموت هـو الانفعال الأكثر قـوة وتأثيرا صـار الجميع يمتلـك القدرة على قتل الآخرين حفاظا على ذاته وحمايتها من كل التهديدات التي يمكن أن تنجم عن التنافس الذي تخلقه الرغبة في إشباع الحاجات الطبيعية.

إن العـداء الطبيعي يؤدي إلـى انعدام الثقة ففقدانهـا فيمـا بعد. وهو ما يؤجـج الرغبة لدى الجميع في الهيمنة والسيطرة على كل الخيرات بما فـي ذلك الحياة التـي يمتلكونها. ولما كان" البشر في تنافس دائم نحو الأمجاد والكرامات... تظهـر الرغبـة والكـره... وأخيـرا تظهـر الحـرب."[٧] وحالة الحرب هـذه، «هي نتيجة ضرورية للأهواء الطبيعية التي تسـير البشر، عنـد انتفاء قوة فعليـة تنظم حياتهـم، وتجعلهم يحترمـون تنفيـذ تعهداتهم التعاقديـة خوفا من العقوبة»[٨].

تنطـوي طبيعـة الإنسـان علـى ميـولات ورغبات طبيعية. وهذا التفسير للطبيعة البشرية إنما هو تفسير آلي يستحضر مختلف المعطيات السـيكولوجية والفيزيولوجيـة المتحكمـة فـي الإنسـان وسـلوكه الذي يتغيى في مرتبة أولى حفظ بقائه باستخدام ما أوتي من قوة ووسائل.

٣. حالة الطبيعة من منظور جـون لوك :

لاسـتعادة الإشـكال المرتبـط بطبيعة حالة الطبيعـة مع جون لوك يسـتوقفنا قولـه آتي:» كثيرا ما يسـأل السـائلون... أين نجد البشر في مثـل هذا الطور الطبيعي»[٩] وهو ما يدل على وعي لوك بهذا الإشـكال وأفقه الفلسفي في بناء نظريته السياسية..

يرى لوك أن فهم طبيعة السلطة السياسية[١٠] ومـا عسـاها أن تكون؟ يبقى مشـروطا بالنظر إلى ماهية الحالة التي يكون فيها الناس بصورة طبيعيـة. وهذه الحالة هي حالـة الحرية الكاملة والمساواة أيضا، حيث تكون المساواة الطبيعية شـرطا للحرية الطبيعيـة. ولا ينبغـي أن نأخذ الحيـرة التي يقصدها هنا لـوك على أنها منفلتة مـن أي قانـون. فبالرغـم من أن «هـذا الطور الطبيعـي طور مـن الحرية، فهـو ليس طورا مـن الإباحية...فالطـور الطبيعي سـنة طبيعية يخضـع لها الجميع.»[١١] وكل الكائنات الحائزة على القدرة علـى الامتثال للقانون تنعدم حرتها بانعدام القوانين نفسها.

إن الحرية الطبيعية من منظور لوك تتحقق كاملة كلما امتثل الإنسـان لقانـون الطبيعة ولا يكـون تحـت نيـر أي رادع آخر سـوى قانون وسـنة الطبيعـة. والعقـل هـو تلك السـنة التي تعلم البشـر جميعا " لو استشاروه، أنهم جميعا متسـاوون وأحرارا، فينبغي ألا يوقع أحد منهم ضررا بحيـاة صاحبه أو صحتـه أو حريته أو ممتلكاته "[١٢].

تظهـر مقومـات حالـة الطبيعة عنـد لوك بموجـب قانونها الطبيعي أنها تقف على طرف نقيـض من أطروحـة هوبز في حالـة الطبيعة التي وصفها بأنها حالة حرب "كل إنسـان ضد كل إنسـان". فلوك لا يقيم أي مساواة بين حالة الطبيعـة وحالة الحرب ويعتبـر أن هوبز خلط بينهما،.

إذ "هنـا نـرى بوضوح الفـرق بين الطور الطبيعـي وطور الحـرب اللذيـن يختلفان كما تختلـف حال السـلم وحسـن الطويـة والتعاون والبقـاء عن حال مـن العداء والمكـر والعنف والتقتيل "[١٣]

تبدو حالـة الطبيعة عند لوك وكأنها تصور لنا أفراد العصور الأولى للبشـرية يعيشون في سـلام ومسـاواة وحريـة قبل ظهـور المجتمع المدني، محكومين بتعاليم قانون الطبيعة وحدها. لكن، هـذا الحكم يبقى مجرد حكـم أولي يقومه

القول التالي للوك: "كثيرا ما يسأل السائلون... أين نجد البشر في مثل هذا الطور الطبيعي، إن الآن أو بالأمس؟ في الجواب على هذا السؤال نكتفي بالقول الآن: لما كان كل الملوك ورؤساء الحكومات المستقلة في جميع أنحاء الأرض في طور طبيعي، فمن الواضح أن العالم لم يخل ولن يخلو من فئة من البشر مازالت في مثل ذلك الطور"[١٤]

إن حالة الطبيعة من منظور لوك هي حالة متصفة بالشمول مقابل وصف حالة إنسان سابقة لظهور المجتمع المدني. إنها صورة من العلاقات البشرية التي لا تعير قيمة لدرجة الخبرة السياسية التي يحوزها كل فرد من الأفراد. ويمكنها أن توجد في أي وقت، بما في ذلك وقتنا الراهن. فمتى وجدت جماعة من الناس وليست لديهم سلطة حاسمة فاصلة يلجؤون إليها، فإنهم لايزالون على الطور الطبيعي بغض النظر عن طبيعة اجتماعهم أو نوعه[١٥].

تظهر الألفاظ المقومة لوصف حالة الطبيعة عند لوك، أنها نقيضة للمجتمع المدني. فإذا كانت الأولى هي كل حالة يعيش فيها الناس دون وجود حاكم بشري ذي سلطة للحكم، فالثاني يصير هو الحالة التي يعيش فيها الناس مع وجود هذا الحاكم.

فكل الناس "الذين يؤلفون جماعة واحدة ويعيشون في ظل قانون ثابت وقضاء عادل يلوذون بهما وبوسعهما البث في الخصومات التي تنشأ بينهم...فإنما يعيشون معا في مجتمع مدني. أما الذين لا ملاذ لهم عام على الأرض، فهم ما يزالون في الطور الطبيعي"[١٦]».

٤. المنهج المتبع في التعرف على حالة الطبيعة :

في تحديده للمنهج الذي ينبغي اتباعه لبناء تصور حول حالة الطبيعة، ينطلق روسو في بحثه من سؤال: «أي تجارب قد تكون ضرورية للتوصل إلى معرفة الإنسان الطبيعي، وما هي الوسائل لإجراء هذه التجارب من داخل المجتمع «. إن فحص هذا المطلب المنهجي يضعنا أمام ما قد نعتبر مفارقة مبدئية. كيف للبحث في حالة الطبيعة أن يستقيم من داخل المجتمع؟ أو ليست هذه الحالة حالة منافية للمجتمع؟ ألا يعتبرها فلاسفة العقد الاجتماعي بما فيهم روسو نفسه حالة سابقة عن المجتمع؟»[١٧].

لقد فطن روسو إلى أن الانتقال من طور الإنسان الطبيعي إلى وضع الإنسان المدني لم يتم وفق طريق مرسوم محدد المعالم والخطوات والمحطات. إن هذا السير لا ينضبط لحركة مضبوطة الاتجاه، مسارها خال من منعرجات ومعطيات غامضة متخفية. لذلك سيكون الباحث على فهم هذا الانتقال في حاجة ماسة إلى تاريخ النوع البشري الذي جعلت منه النظرية السياسية جزء لا يتجزأ عنها ولا ينفصل.

وجد الإنسان في كل الأزمان. وامتلك صفات انضافت على طبيعته خلال سيرورة تطوره التي طوت ولفت خصائصه الطبيعية الأولى وأخفتها بين ثنايا التحولات والتبدلات حتى استعصت استعادتها في وضعها الخالص النقي من مضافات الحالة المدنية.

ينبه روسو في هذا البحث على مسألة مهمة لا ينبغي إغفالها لحسن فهم سبيل بحثه ومن ثمة النتائج التي سيتوصل إليها بخصوص حالة الطبيعة.

ولذلك يرى أنه " لا يجب أن نأخذ البحوث التي قد نخوض فيها بصدد موضوعنا هذا مأخذ الحقائق التاريخية، وإنما كاستدلالات افتراضية وشرطية، أحرى بها أن توضح طبيعة الأشياء من أن تبين أصلها الحقيقي، وهي شبيهة بالبحوث التي يقوم بها علماء الطبيعة كل يوم حول تكوين العالم "[١٨]

إن السبيل لمعرفة التجارب التي يراها روسو ضرورية لمعرفة هذه الحالة، يستلزم إزاحة جميع الوقائع التي لا تمت صلة بهذه المسألة. ومادام البحث عنها سيتم من داخل المجتمع، فإن ذلك بلغة روسو يرمي لفرز ما هو أصلي عما هو اصطناعي في طبيعة الإنسان الحالية دون اعتبار هذا الفصل بالعمل الهين

«ولا السهل أن نعرف حق المعرفة حالة لم تعد توجد، وربما لم توجد قط، ومن المحتمل ألا توجد أبدا."[١٩] وبالرغم من ذلك، لا بد أن تحصل لنا عنها أفكار صحيحة للحكم عن الحالة الحاضرة[٢٠] حكما صائبا.

لقد أفرز الموقف الفلسفي القاضي بأن المجتمع المدني ليس أمرا طبيعيا ضرورة تحديد التمايزات الدقيقة الحاصلة بين الإنسان الطبيعي والإنسان المدني. وإدراكا منه لهذا الأمر وتأثيره على صدقية أسس بنائه النظري، سلك روسو مسلكين متكاملين في هذا التحديد، هما: تقفي الوضع البدائي بتجلياته الأولى بناء على شواهد تاريخية حيث يصير موضوعا للبحث الأنثروبولوجي المؤسس على استعادة كيفيات العيش في وضعها الهمجي البدائي. وطريق ثان متمثل في فحص النفس البشرية في بساطتها للكشف عن حركاتها الأولى والتطورات الحاصلة عليها.

٥. مسوغات نقد روسو لمضمون حالة الطبيعة عند فلاسفة العقد الاجتماعي :

أ - حدود الرغبات هي الحاجات البيولوجية عند انسان الطبيعة :

يقر روسو أن حاجات الإنسان الطبيعي مقصورة على ما ارتبط منها بالجانب الفيزيقي من غذاء وأنثى وراحة، وكل ما يخشاه من الشرور، إنما الألم والجوع[٢١]. ويبقى جسد الإنسان المتوحش الأداة التي يلبي بها حاجاته التي لا تتجاوز قواه التي وهبته الطبيعة إياها. ولما كان حفظ البقاء هو مدعاة انهمامه الوحيد، كان جسده متمرسا على الدفاع والهجوم لقهر طريدته أو لأجل ألا يكون فريسة حيوان آخر.

هكذا، لا تتجاوز رغبات الإنسان المتوحش حد حاجاته الفيزيقية. فرغباته وأهواؤه إنما علتها ما هو ضروري لحفظ بقائه. وفي هذا السياق يوجه روسو نقدا لا دعا للفلاسفة الذين زادوا من حاجات الإنسان الطبيعي عن تلك التي اقتضتها الطبيعة نفسها. ويبني هذا الموقف على مصدر تولدها حيث يقول:

«إن جميع احتياجاتنا الأخرى ليست احتياجات إلا بأمرين: إما بحكم العادة – طالما لم تكن حاجات قبل الاعتياد عليها-وإما نتيجة الرغبة. ولا يرغب المرء البتة إلا فيما يكون في مستطاعه أن يعرفه »"[٢٢]

لذلك لا يشتهي الإنسان الموحش من الأشياء إلا ما له به معرفة، وهو لا يعرف إلا ما يكون في مقدوره حيازته. وكيف له ذلك وهو المعدوم من كل ضروب المعرفة. هكذا يقيم روسو علاقة تناسب بين تقدمات الذهن[٢٣] والأهواء التي تدعو إلى توفير حاجات زائدة.

ب - انتفاء الحاجة للآخر وإمكانية الاجتماع:

إن محدوديــة الحاجــات الطبيعية تجعل كل إنســان طبيعي قادر بشكل مســتقل على تلبيتها. فبموجب قانون الطبيعة انتفت الحاجات المتبادلة بين أفراد النوع الإنساني في حالة الطبيعة، لذلك يبقى من المحال" علينا أن نتصور لماذا في تلك الحالة الطبيعية يكون النســان أحوج للإنسان... وإذا ســلمنا بوجود هذه الحاجة، لن نفهم الداعي الذي يلزم أحد البشــر بقضاء حاجة الآخر، وإذ توفــر الداعي، لن نفهم كيف يســتطيعان وضع شــروط الاتفاق."[٢٤] فالطبيعــة أهملت تأهيل الإنســان الطبيعي للمدنية، ولم تســهم في إيجاد روابط بين الأفراد في حالة الطبيعة.

إذا لم يكن بين البشــر فــي حالة الطبيعة أي علاقة اجتماعيــة تترتب عنها واجبات متبادلة، فــإن أي علاقة أخلاقيــة اســتحال قيامها. لذلك «ليــس ممكنــا أن يكونــوا أخيارا أو أشــرارا، ولا أن تكــون لديهــم فضائل ولا رذائــل.»[٢٥] فالمتوحشــون ليســوا أشــرارا لأنه لا فكرة لهم عــن معنى أن يكونوا أخيارا. وإن «جهل بعض الناس بالرذيلة أكثر نفعا لهم من معرفة بعضهم الآخر بالفضيلة.»[٢٦] ولما استحالت أي معاملة بين المتوحشــين، فإنهم ما كانوا يعرفون من ثم الغــرور أو الاحترام ولا الاحتقــار، وما كانوا يعرفــون معنــى «مالك ومالــي» ولا أي فكرة حقانية عن العدل.[٢٧].

بناء على هذا الأســاس، ينتقد روسو موقف هوبز فيما يخص حفظ البقاء للإنسان المتوحش الذي خصه بحاجة إشباع مجموعة من الأهواء المتولدة عن المجتمع، والتي جعلت من الشرائع أمرا ضروريا. عوض أن يخلص وفقا للمبادئ التــي يقرها إلى أن الحالــة الطبيعية التي يكون للإنســان الطبيعي كل الحرص على بقائه، وهو الأقــل ضررا بحفــظ بقاء غيــره، هي الأصلح للسلام والأكثر ملاءمة للجنس البشري[٢٨].

جـ - حالة التفكير حالة تضاد الطبيعة :

يعتقــد روســو أن فرضيــة القــول بامتلاك الإنســان الطبيعي فــن التفكير والــذكاء باطلة. فحتــى ولو ســلمنا بوجود إنســان ملــك مهارة التفكيــر[٢٩] وبلغ به الحال ليصــل إلى الحقائق بمفــرده متتبعا سلاســل الاســتدلالات المجردة وله من المعرفــة وأنوارها ما له. فإنه لن يكون قادرا على تقاسمها مع باقي أفراد نوعه. ويكون مصيرها الهــلاك بهلاك صاحبهــا. فهو يعيش وحيدا لا تربطه أية رابطة بالآخرين المشــتتين فــي الغابات لم يكــن بينهم أي «تخاطب ولا أي حاجة للتخاطب» مما جعــل قيام إمكانية الكلام منتفية.

الأفــكار مدينة لاســتعمال الــكلام[٣٠] الذي كلــف اختراعه جهــدا جهيدا ووقتــا وتطورات مــا كان لحالــة الطبيعــة[٣١] توفيرهــا. وهكذا فقــد أخطأ من ربــط التفكير والــكلام وجعلهما حاصلين للإنســان الطبيعــي، «إذ هم يتفكرون في حالة الطبيعة، ينقلون إليها آراء مستمدة من المجتمع.»[٣٢] فالملــكات الفكرية التي أعطيت للإنســان الطبيعي، ما كان لها أن تنمو وتترقى من تلقاء نفسها، بل كانت في حاجة إلى تضافر العديــد من العلــل الخارجية التــي لولاها لبقي الإنسان حبيس شرطه البدائي. فنمو الإدراكات بات مرتبطا بنمو الأهواء وتكثر حاجاتها.

«إن الذهن الإنساني مدين بالكثير للأهواء، والأهواء مدينة بالكثير للذهن، وهذا متفق عليه بالكليــة. فإنما يتكامل عقلنا بنشــاط أهوائنا، ولا نطلب المعرفة إلا لأننا نرغب في المتعة، وليس فــي الإمكان أن نفهم لم يتكلــف من لا رغبة له ولا خشــية عناء الاســتدلال بالعقل. والأهواء، بدورهــا، تســتمد أصلها من حاجاتنا، وتســتمد تقدمها مــن معارفنا، لأنه ليس ممكنا أن نرغب

فـي الأشـياء أو أن نخشـى منهـا إلا بحصول فكرتهـا لهـا، أو بمحض اندفاع مـن اندفاعات الطبيعة "[٣٣].

د - انتفـاء الحـب الوجدانـي على إنسـان الطبيعة :

بناء على ما سـلف، وإذ إن الشـعور يتقوم بمعان كمعنى المزايا والجمال وهو ما عدم منه الإنسـان الطبيعي لعدم قدرته علـى تمثله، لزم أن يكون هذا الشـعور معدوما لديه، فإذا لم تكن القدرة حاصلـة لذهن المتوحـش لتكوين أفكار مجردة حول الانتظام والتناسـب. وبالنتيجة "لم يكن قلبه أيضا مهيأ لمشـاعر الإعجاب والحب التي نشـأ عن تطبيق هذه الأفكار دون أن يفطن لهـا أحد، إنـه لا يصغي إلا للمـزاج الذي تلقاه من الطبيعة لا لذوق لم يتمكن من اكتسابه"[٣٤]. فكانـت كل امرأة في عينه حسـنة وكان شـرط الارتباط بهـا منتفيا مادام الحـب عنده مقتصر على ما هو فيزيقي[٣٥]. وكان الحب الأخلاقي[٣٦] شأنه شأن الأهواء مكتسب بحكم الاجتماع.

هـ - في عدم صلاحيـة القول بالتفاوت بين الناس في حالة الطبيعة :

ينتقـد روسـو الموقف القائـل بالتفاوت بين البشر في حالة الطبيعة. إذ يرى أن الفروق بين البشـر – كثيرا منها يبدو طبيعي – تعود للعادة وضروب العيش التي ينتحلها البشر في المجتمع والتربية التي يخضع لها كل واحد. فهي "لا تقيم فرقا بين العقول المهذبة وغير المهذبة وحسب، وإنما تزيـد أيضا في الفرق بين العقول المهذبة على نسبة ما لها من تهذيب "[٣٧].

أما البشـر في حالة الطبيعة كلهم يخضعون لنظـام الطبيعـة وحده. فيهـا "يتغـذى الجميع بالمأكول نفسـه، ويعيشون على طريقة واحدة، ويقومـون تقريبـا بذات الأعمـال... الفرق بين إنسـان وآخـر أقـل في حالـة الطبيعـة منه في حالة المجتمع وجوبا... التفاوت الطبيعي يزداد وجوبـا داخل النوع البشـري بمقتضى التفاوت المستقر بالاصطناع "[٣٨].

ويذهب روسـو إلى دحض أمر التفاوت في حالة الطبيعة بتبيان انتفاء الغاية منه. فحتى ولو "صـح كما يزعـم بعض الفلاسـفة أن الطبيعة عمـدت إلى التفضيل بين أفراد النوع البشـري وهي تـوزع هباتهـا الطبيعيـة، فما مـن فائدة يجنيها "المفضلون على حساب الآخرين، وهم في وضع لا يجيز قيام أي نوع من العلاقات بين البشر أو يكاد؟ فحيثما لا حب، فما فائدة الجمال؟ وما الفائدة من الذهن لأناس لا يتكلمون؟ "[٣٩]

ز- لا عبودية ولا إذعان في حالة الطبيعة

يرجع روسـو العبودية والاضطهاد للحالة المدنيـة وينفيهـا نفيا تامـا عن حالـة الطبيعة. فالإنسـان الطبيعـي لا يحوز مفهـوم العبودية والسيطرة. ولا يملك أي منهم شيئا يفرض عليه فرض سـيطرته على الآخريـن. كيف للعبودية أن تقوم لها قائمة في حالة تكفلت الطبيعة بتلبية جميع الحاجات الطبيعية التي تضمن للإنسـان الطبيعي حفظ بقائه. هكذا فإن روابط الاسـتعباد "لم تنشأ إلا من تبعية بعض البشر لبعض، ومن الحاجات المتبادلة التـي تجمعهم، لزم على كل شـخص أن يدرك أن من المحال استعباد إنسان دون وضعه سـلفا في حالة لا يسـتطيع موجبها الاسـتغناء عن غيره" وهو الوضع الذي انتفت إمكانية تحققه في حالة الطبيعة. فظل كل شخص فيها حرا وكانت شريعة الأقوى شريعة باطلة.

ح -انتفاء التقدم في حالة الطبيعة :

في ظـل التصـور المعطى لحالـة الطبيعة من لدن روسـو، يمكن الإقرار بأنها حالة تتمتع

بشـروط بقائهـا دون أن يكون التطور سـمتها. وهو بذلك يسـتبعد إمكانية انتقال إنسان الطبيعة من حاله إلى حالة التطور في ظل حالة الطبيعة. فأي "تقدم قد يبلغه الجنس البشـري المشتت في الغابـات بين الحيوانات؟ وإلى أي حد يسـتطيع أن يتكامل البشـر وأن يسـتنير بعضهم ببعض، والحال أنهم بلا سـكن ثابـت ولا حاجة لأحدهم بالآخـر، فلا يكادون يتلاقون مدة الحياة إلا مرة واحـدة أو مرتين دون أن يتعارفـوا أو يتبادلوا الكلام "[٤٠]

هكـذا، تكون الافتراضات المسـوغة لحالة التطـور التـي يقول بهـا كل من هوبـز ولوك غيـر مقبولة في حالـة الطبيعة كمـا تصورها روسـو. فالتطـور يقتضـي اتحاد القـوى الذي يبقـى التواصـل شـرطه الأول، ولذلـك يقول روسو مسـتغربا:" وكلما تأملنا هذا الموضوع إلا وزادت، فـي نظرنـا، المسـافة التـي تنفلنا من الإحساسـات الخالصة إلـى أولى المعارف البسـيطة، ومن المحال أن ندرك كيف استطاع إنسـان أن يقطـع مثـل هـذه المرحلـة الكبيرة بقـواه وحدها، وبـدون معونـة التواصل، ومن غير واعـز الضرورة."[٤١]هكذا يكون التطور حاصـلا بفعل التواصـل والمجتمـع[٤٢] وقدرة الكائن البشري غير المحدودة المتمثلة في قابلية الاكتمال التي يعتبرها روسـو شرطت لا غنى عنه للتطور الذي ستعرفه البشرية لنمو معارفها وفضائلها ورذائلها.

٦. النقد الموجه لفلاسفة العقد الاجتماعي :

بهذا التصور المعطى لحالة الطبيعة ووضع الإنسـان الطبيعي فيها، يكون روسـو قد خالف فلاسـفة العقد الاجتماعي السـابقين عليه. وهذا التفـرد إنما مـرده لا يعود إلى مـا توصل إليه مـن أفكار توصيفات لحالـة الطبيعة بل هو في أصـل تفرد فـي المنهج المعتمـد والاحتياطات والتنبيهات التي أخذ بها روسو في رحلة البحث في هذا الموضوع. فكل الفلاسـفة «الذين تولوا البحث في أسـس المجتمع استشـعروا ضرورة الارتـداد إلى حالة الطبيعـة، ولكن لا أحد منهم وصل إلى هناك. فبعضهم لم يتردد في افتراض أن الإنسـان لديـه، وهو في تلـك الحالة، معنى العـدل والجـور، دون أن يقيموا الدليل على أنه كان كاسبا لهذا المعنى وجوبا، أو أن هذا المعنى كان نافعا له [٤٣].»

لقـد انتبه روسـو إلى ما أقبل عليه سـابقوه مـن خلال نقـل ما في الحالـة المدنية من أفكار وصفـات تخـص الإنسـان المدنـي وإلصاقها بالإنسـان الطبيعـي. إن الحاجـة والجشـع والاضطهـاد والرغبـات والكبريـاء صفـات حاصلة في المجتمع لا في حالة الطبيعة. وهكذا "كانوا يتكلمون عن الإنسان المتوحش، والحال أنهم يرسمون صورة الإنسان المدني، ولم يحل بخاطر الغالبية من فلاسـفة عصرنا أن يشـكوا في وجود حالة الطبيعة سـابقا."[٤٤] لقد حاولوا أن يسـتمدوا القواعـد السياسـية مـن فرد غير متعلق بأية دولة، وهو أمر يوافقهم فيه روسـو، لكنهم وصفوه بصفات الإنسـان المدني عوض توصيفـه وهو فـي وضعه الطبيعـي الخالص. رأوا فيـه كائنا كاملا بكمـالات المجتمع المدني ومضافاتـه رغـم زعمهـم تجريده مـن صفاته الاجتماعية أبقـوا على صفات كثيرة لا يحصل له كسـبها إلا بفعل الحيـاة الاجتماعية كالتفكر والتبصر والحسد والغيرة والرغبة الجامحة في تحقيق رغبات الأهواء الزائدة عما هو أساسي..

لقـد أفـرز الموقـف الفلسـفي القاضي بأن المجتمـع المدنـي ليـس أمرا طبيعيـا ضرورة تحديد التمايزات الدقيقة الحاصلة بين الإنسـان

الطبيعـي والإنسـان المدنـي. وإدراكا منه لهذا الأمر وتأثيره على صدقية أسس بنائه النظري، سـلك روسو مسلكين متكاملين في هذا التحديد، هما: تقفي الوضـع البدائي بتجلياته الأولى بناء على شـواهد تاريخيـة، حيث يصير الإنسـان موضوعا للبحث الأنثروبولوجي المؤسس على اسـتعادة كيفيـات العيش في وضعهـا الهمجي البدائـي. وطريق ثان متمثل فـي فحص النفس البشـرية في بسـاطتها للكشـف عـن حركاتها الأولى والتطورات الحاصلة لها..

لتحقيـق هذا المقصد، اهتم روسـو بشـكل واضح بمعانـي العبارات التقليديـة التي كانت تؤثث فضاء الفلسـفة السياسـية الحديثة كعبارة حالـة الطبيعـة والإنسـان الطبيعـي والقانون الطبيعـي وغيرهـا مـن العبـارات، واتخذ من فحـص مضمونهـا مدخـلا لنقدهـا. لقـد اتفق روسو مع فلاسـفة العقد الاجتماعي بخصوص ضرورة اسـتدعاء حالة الطبيعـة والعودة إليها لفهم أسـس قيام المجتمع المدنـي. وبالرغم من حصول هذا الاتفـاق بخصوص منطلق البحث في أسـاس المجتمـع إلا أن النتائج التي توصل إليهـا هـؤلاء الفلاسـفة متباينـة ومتعارضـة، ويمكن أن نلخصها فيما يلي :

منح روسـو حالة الطبيعـة مضمونا مخالفا لما قدمه هوبز وجـون لوك. صحيح أن مطلب حفظ البقـاء يكون بمثابة الغايـة القصوى التي توجـه تصرفـات الأفراد في هـذا الطور، لكن حاجاتهـم محدودة بحـدود الحاجـات الطبيعية التي تضمن بقاءهم، ولمـا كانت الطبيعة قادرة على توفيرها انتفـت الحاجة للآخرين، وانتفت كل صلة اجتماعيـة أو أخلاقية بهم. لقد أهملت الطبيعة إعداد الإنسـان الطبيعي للمدنية، عندما تكفلـت بـه وبحاجاته. ولمـا كان الإنسـان في هـذا الطور فـي غير حاجة لمعونـة الآخرين، اسـتحالت فكـرة الاجتماع والحـرب والتملك، بـل وكانت حالـة التفكـر حالة مدنيـة خالصة منافيـة للحالة الطبيعية، حيث لم تكن للكلام من ضرورة أو إمكانية الحصول وحتى الرغبة في المعرفة باتت غير ممكنة..

إن ما يميز حالة الطبيعة عند روسو هو غياب البعـد الأخلاقي بسـبب انتفاء أسـباب حصول التعـارف أو الاجتماع مـع الآخرين. الناس في هـذا الوضـع الطبيعي لا يحـوزون أفكارا عن الجمال أو التقدير أو الإعجاب وغيرها من القيم الأخرى التي تسمح بالكلام عن صفة الأخلاقية خارج المجتمع. إنهم يتمتعون بمسـاواة تامة ما دام الـكل خاضعا للنظـام الطبيعي، فلا عبودية ولا إذعـان في هذا الطـور، ولا تقدم فيه ما دام اتحاد قوى الأفراد بما هو شرط لحصوله متعذر فـي الحالة الطبيعية. فالنـاس خارج المجتمع لا يحوزون أي صفة أخلاقية.

خلاصة

خالـف روسـو فلاسـفة العقـد الاجتماعي السـابقين عليـه بالتصـور الـذي منحـه لحالة الطبيعـة ووضع الإنسـان الطبيعـي فيها. ولا يعود هـذا التفرد إلى ما توصـل إليه من أفكار وتوصيفـات لحالـة الطبيعـة وحسـب، وإنمـا يرجـع أيضـا، إلى التفـرد في المنهـج المعتمد والاحتياطـات والتنبيهات التي أخذ بها روسـو في رحلة البحث في هذا الموضوع.

إن التحليـل الـذي خَصَّ به روسـو مسـألة تأسيس المجتمعات الأولى، أفضى به إلى تبرير ضـرورة إعادة النظر في المنطلقات والأسـس الفلسـفية، ونقدها بما يسـمح بتقديم موقف جديد يتوافـق وطبيعة الإنسـان التي اتخـذت منطلقا للتأصيـل والبناء، دونما الحاجة لما هو سـابق. هذا الأمر يمكن النظر إليه كديكارتية جديدة في

مجال الفلسفة السياسية مع روسو.

يظهر بجلاء تأثر روسو بالنموذج الفيزيائي الـذي وجَّه البحث في الطبيعـة وفقا لمقتضيات المنهج الفرضي الاسـتنباطي. فكمـا أن العلوم الغاليليـة والنيوتونية والديكارتية تخلق لنفسـها نموذجـا إبسـتيميا مثاليـا، يسـتمد صدقـه من مثاليتـه الرياضياتيـة، فإن روسـو سـار على المنهج نفسـه، ولم يسلك مسـلكا تجريبيا، سواء لحظـة بحثه فـي تاريخ الإنسـان المدني أو في أثروبولوجيا الإنسـان الطبيعـي. لقد بحث عن الإنسـان الكلي بما هو نموذج يصلح كنقطة بدء للبنـاء، وليكون مرجعا لقياس الثابت والمتحول في الطبيعة الإنسانية.

يظهر تأثر روسو بالمنهج الذي اهتم بمسألة الأصـل الـذي هيمن فـي القرن الثامن عشـر: أصل الإنسـان، أصل اللغة، أصـل المعرفة... إلخ. يقتضي تحديـد هذا الأصل تفكيك المركب الماثل إلى عناصره البسيطة المكونة له، ولذلك نجد روسـو يستشـهد بمؤلف التاريخ الطبيعي لبوفـون فـي الخطـاب الثانـي. هـذا، ويتمتع المنهـج التكوينـي ببعديـن مختلفين: التأسـيس أولا بمـا هـو تحديـد للأصول(حالـة الطبيعة، الإنسـان الطبيعي)، والتشـكل ثانيا بما هو بنية داخلية محكومة بعلاقـات ترابط بين المكونات البسـيطة(تكون المجتمع، تكون الشعب، تكون الإرادة العامـة). وهكـذا يحضـر التكـون في الخطاب الثاني بـدلالات أنتروبولوجية لتحديد الضـرورات والحاجات الطبيعية السـابقة عن المواضعـات المدنيـة والسياسـية، ويحضـر التكون فـي العقد الاجتماعي بدلالات تأسـيس وخلق الجسـم السياسـي واصطناع المؤسسات بالتعاقـد والاتفاق. دلالات اسـتمدت مضمونها من داخل تقابلات أفرزها المنهج التكويني الذي اعتمده روسـو في دراسته للإنسـان:(الطبيعة/ المدنية)، (السـكون، الحركة)، (الأصل، المتكون)،(الماضـي، الحاضر)،(الطبيعـي، الاصطناعـي) والتي شـكلت عصـب نظريته السياسية

الهوامش

(١) جان جاك روسـو، خطاب فـي أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر، ترجمة بولس غانم، تدقيق وتعليق وتقديـم عبد العزيـز لبيب، مركز دراسـات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٩.، ص. ٥٩.

(٢) المصدر نفسـه، ص. ٥٩. لقد تصرفنا في الترجمة العربية المثبتة في المصدر المشار إليه والتي جاءت كما يلي:(نستكمل أبدا لا إقامة بهذه التمييزات) حيث تضمنت نفيا لا يستقيم معه ما يقصده روسو، كما هو مبين في النص الفرنسي:

Discours sur l'origine et les fondements de l'inégalité parmi les hommes : «Or sans l›étude sérieuse de l›homme‹ de ses facultés naturelles‹ et de leurs développements successifs‹ on ne viendra jamais à bout de faire ces distinctions‹ et de séparer dans l›actuelle constitution des choses ce qu›a fait la volonté divine d›avec ce que l›art humain a prétendu faire».

(٣) جـان جاك روسـو، خطاب في أصـل التفاوت وفي أسسه بين البشر، مصدر سابق، ص. ٦٦,٣ -

(٤) جـون لـوك، في الحكـم المدني، نقلـه من الأصل الإنجليزي إلـى العربية ماجد فخري، اللجنة الدولية لترجمة الروائع، بيروت، ص.١٧٢. ١٩٥٩،

(٥) جان جاك روسـو، خطاب فـي أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر، مصدر سابق، ص.٥٤,٥ -

(٦) تومـاس هوبـز، الليفيتـان أو الأصـول الطبيعيـة والسياسية لسـلطة الدولة، ترجمة ديانا حبيب حرب وبشـرى صعب، مراجعـة وتقديم رضوان السـيد، مصدر السابق، ص.١٣٦.

(٧) توماس هوبز، الليفيتان أو الأصول الطبيعية والسياسية لسلطة الدولة، مصدر سابق، ص.١٧٨,٧

(٨) المصدر السابق، ص.١٧٦٨ -.

(٩) جون لوك، في الحكم المدني، مصدر سابق، ص.١٤٥,٩ -

(١٠) يعرف لوك السلطة السياسية قائلا:" وأنا أعني بالسلطة السياسية إذن حق سن الشرائع، وتطبيق عقوبة الموت، وما دونها من العقوبات محافظة على الملكية وتنظيمها، واستخدام قوة الجماعة في تنفيذ هذه الشرائع، ودفع العدوان الخارجي عن البلاد، وكل ذلك من أجل الخير العام وحسب." المصدر نفسه، ص.١٣٨.

(١١) جون لوك، في الحكم المدني، مصدر سابق، ص.١٤٠,١١ -

(١٢) المصدر السابق، ص.١٤٥,١٢ -

(١٣) المصدر السابق، ص.١٤٨,١٣ -

(١٤) المصدر السابق، ص.١٤٥,١٤ -

(١٥) يقول لوك في الفقرة ٨٩ في الفصل الثامن المهنون بـ" في المجتمع السياسي أو المدني": "...فحيث يؤلف عدد من الناس جماعة واحدة ويتخلى كل منهم عن سلطة تنفيذ السلطة الطبيعية التي تخصه، ويتنازل عنها للمجتمع، ينشأ عندها حينذاك فقط مجتمع سياسي أو مدني. وهو ما يحدث كلما تألب عدد من البشر ما برحوا على الطور الطبيعي في مجتمع واحد وألفوا شعبا واحدا ودولة واحدة تخضع لسلطة حكومية عليا واحدة، أو عندما ينضم فرد ما أو يلتحق بحكومة قائمة فعلا. لأنه بذلك يخول المجتمع أو السلطة التشريعية فيها(وهما شيء واحد) أن تسن القوانين بالنيابة عنه، وفقا لما تقتضيه مصلحة المجتمع العامة، فيتوجب عليه إذ ذاك المؤازرة في تنفيذها، كما لو كانت من وضعه هو. وهذا ما يخرج الناس من الطور الطبيعي إلى طور الدولة، التي يقوم على رأسها حاكم بشري يتمتع بسلطة الفصل في جميع الخصومات وينصف أصحاب المظالم من أبناء تلك الدولة. وهذا الحاكم هو الهيئة التشريعية أو القضاة الذين تنصبهم. فإذا وجدت جماعة من الناس ليس بينهم مثل هذه السلطة الحاسمة يلوذون بها، فهم ما يزالون على الطور الطبيعي، مهما كانت طبيعة اجتماعهم أو نوعه." جون لوك، في الحكم المدني، مصدر سابق، ص.١٨٩.

(١٦) المصدر السابق، ص.١٨٨,١٦ -

(١٧) جان جاك روسو، خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر، مصدر سابق، ص.٥٤,١٧ -

(١٨) المصدر نفسه، ص.٦٦-٦٧,١٨ -

(١٩)جان جاك روسو، خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر، مصدر سابق، ص.٥٤,١٩ -

(٢٠) هذه العبارة تفصح عن غاية مؤلف خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر المتمثلة في إثبات المساواة بين أفراد النوع البشر كما أرادت لهم الطبيعة مقابل إرجاع كل التفاوتات الأخلاقية للحالة المدنية والتغيرات الطارئة على النوع الإنساني إلى هذه الحالة. يقول روسو في هذا الباب:" فلكم تغيرت أيها الإنسان عما كنته! ما سأصفه لك إنما هو إذا جازت العبارة، حياة نوعك البشري، وفق الصفات التي تلقيتها، ثم أفسدتها تربيتك وعاداتك، ولكن دون أن تتمكن من تدميرها." المصدر نفسه، ص.٦٨.

(٢١)المصدر نفسه، ص.٨٦,٢١ -

في نقد الفلاسفة فيما ينسبونه لإنسان الطبيعة أورد روسو التعليق التالي: "هذا ما يبدو لي في منتهى الوضوح، ولا أدري كيف تصور من أين يمكن لفلاسفتنا أن يولدوا جميع هذه الأهواء التي ينسبونها إلى الإنسان الطبيعي، وإذا ما استثنينا الضروري الفيزيقي الذي تقتضيه الطبيعة نفسها، فإن جميع احتياجاتنا الأخرى ليست احتياجات إلا بأمرين: إما بحكم العادة – طالما لم تكن حاجات قبل الاعتياد عليها – وإما نتيجة الرغبة، ولا يرغب المرء البتة إلا فيما يكون في مستطاعه أن يعرفه. يتبع ذلك أن الإنسان المتوحش، وهو لا يشتهي من الأشياء إلا ما له به معرفة، لا يعرف من الأشياء إلا ما في مقدوره حيازتها، أو ما سهل عليه تحصيله، فلا شيء أهنأ من نفسه، ولا شيء أضيق من عقله". المصدر نفسه، ص.١٩٣.

(٢٢) جان جاك روسو، خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر، المصدر نفسه، ص.١٩٣. ٢٢

(٢٣) يرى روسو أن حالة التفكر منافيا لحالة الطبيعة ومناقضة لها حيث يقول: "إذا قدرت لنا هذه الطبيعة أن نكون معافين من العلل، فإني أكاد اجترئ على القول إن حالة التفكير حالة تضاد الطبيعة، وإن الإنسان الذي يتأمل(بعقله) حيوان فاسد". المصدر نفسه، ص.١٩٣.

(٢٤) المصدر نفسه، ص.٩٧,٢٤ -

(٢٥) جان جاك روسو، خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر، مصدر سابق، ص.٩٨,٢٥ -

(٢٦) المصدر نفسه، ص.١٠٠,٢٦ -

(٢٧) المصدر نفسه، ص.١٠٦,٢٧ -

(٢٨) المصدر نفسه، ص.٩٩,٢٨ -

(٢٩) المصدر نفسه، ص.٨٩,٢٩

(٣٠) يدعم روسو موقفه بخصوص أصل الألسن والكلام بما أقره كوندياك Condillac توفي عام ١٧٨٠، من فلاسفة التنوير وأتباع لوك في فرنسا حيث يعتبر مؤسس المدرسة الحسانية Sensualisme. عالج مشكلات اللغة والمنطق والمعرفة وهاجم الأنساق الميتافيزيقية التقليدية. هو صاحب رسالة في أصل المعارف الإنسانية Essai sur l'origine des connaissances humaines(١٧٤٠) ورسالة في الإحساسات Traité des sensations(١٧٥٤). ويؤكد روسو أن كوندياك هو من أوحى له بالفكرة الأولى في إشكالية أصل العلامات المستحدثة مع وجود اختلاف بينهما من جهة طريقة ومنهج البحث والتحليل. فما انطلق منه الأول كافتراض جعله روسو موضع سؤال: ما أصل العلامات المستحدثة. انظر: جان جاك روسو، خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر، مصدر سابق، ص.٩٠,٩٠.

(٣١) يعتبر روسو أن الإنسان الأولي كانت له لغة كلية فعالة أكثر من سواها وهي الوحيدة التي كان في حاجة إليها قبل أن يضطر إلى إقناع البشر المجتمعين. وهذه اللغة هي صراخ الطبيعة. انظر: المصدر نفسه، ص.٩٢-٩٣.

(٣٢) المصدر نفسه، ص.٩٠,٣٢ -

(٣٣) المصدر نفسه، ص.٨٦,٣٣ -

(٣٤) جان جاك روسو، خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر، مصدر سابق، ص.١٠٧,٣٤ -

(٣٥) يميز روسو بين الحب الفيزيقي بما هو رغبة هامة تحمل الجنس على الاتحاد بالجنس الآخر والحب الأخلاقي الذي يعين هذه الرغبة ويشدنا حصرا إلى موضوع بعينه. المصدر نفسه، ص.١٠٧.

(٣٦) يقول روسو: "مما لا جدال فيه إذا أن الحب مثله مثل سائر الأهواء الأخرى، لم يكتسب إلا في المجتمع، هذه الحمية الصائلة التي كثيرا ما تجعله شؤما على البشر." المصدر نفسه، ص.١٠٨.

(٣٧) المصدر نفسه، ص.١١٠,٣٧ -

(٣٨) المصدر نفسه، ص.١١١,٣٨ -

(٣٩) جان جاك روسو، خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر، مصدر سابق، ص.١١١,٣٩ -

(٤٠) المصدر نفسه، ص.٨٩,٤٠ -

(٤١)جان جاك روسو، خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر، مصدر سابق، ص.٨٨,٤١ -

(٤٢) يرى روسو أن التطور يفترض حصول معرفة بمختلف استعمالات النار وبفن إعادة توليدها وفن الزراعة والارتباطات الحاصلة بينها وباقي الفنون الأخرى. وهذه الفنون كلها لا يمكنها أن تحصل إلا في مجتمع بدأ تكونه على الأقل لضمان استمرارية تقاسم الفنون بين أعضائه. المصدر نفسه، ص.٨٨.

(٤٣) المصدر نفسه، ص.٦٦,٤٣ -

(٤٤) المصدر نفسه، ص.٦٦,٤٤ -

Jean-Jacques Russo and his Essential Divergences with the Social Contract Philosophers

Asst. Prof. Khalid Al-Khata (PhD.)

Abstract

Modern political philosophy has considered learning about nature as an essential condition prior to originating the formation of any society and State, and as a point of departure to determine the essentials of the political power thereof. The consensus between the social contracts theoreticians does not result in agreement on the foundations of civil society and the nature and objectives of its social contract, which shows that there are fundamental differences concerning the essence of the principle of originality itself and the philosophical construction process.

This paper seeks to highlight aspects of transformation and innovation that led Jean-Jacques Russo to crystallize a unique philosophical position in regard to the formation of society; he started his endeavor by retrieving the originality question which served as an input to his analysis of the positions of Thomas Hobbs and John Locke regarding the state and characteristics of nature, and as a differentiating tool to distinguish the characteristics of the natural human being from those of Man as a civilian.

Keywords: Political Modernism, Originality, The State of Nature, Social Contract, Society